

مفهوم التربية الموسيقية وتاريخها

العمري سودة

أستاذ بقسم الموسيقى، المدرسة العليا للأساتذة، القبة

lamri.souadda@g.ens-kouba.dz

1. مفهوم التربية الموسيقية

إذا كانت الطبيعة هي التي نُزودنا بالذوق الموسيقي، فالتربية لها دور أساسي في ذلك، لأنها هي التي تخلق فينا ذلك الذوق. إذن فالذوق الموسيقي لا يُكتسب إلا إذا كان هناك فعل تربوي، لذا فالتربية الموسيقية هي الوسيلة التي نُكسبنا فن الموسيقى بكل أبعادها.

تعتبر علاقة الموسيقى بالطفل من الميادين الأكثر تناولاً في علم الموسيقى. والتربية الموسيقية لا تقتصر في تربية الطفل على الموسيقى، بل تهتم كذلك بتربيته عن طريق الموسيقى، أي أن الموسيقى ليست فقط هدفاً بل هي كذلك وسيلة تربوية.

إن الموسيقى أداة تربوية لها فاعليتها وتأثيرها على النمو الشامل لشخصية الفرد، ولها أثر على سلوكه وأخلاقه بدرجة تفوق ما يُحقِّقه الإرشاد القولي. كما تؤدي الموسيقى دوراً فعالاً في التأثير على النشاط الذهني وتنمية القدرات العقلية، كالقدرة على الانتباه والتمييز وسرعة التفكير وتنمية الخيال والتفكير والابتكار. وتساهم الموسيقى في تنمية القدرة على التعبير الذاتي والتواصل مع الآخرين، فضلاً عن تنمية قدرات جسدية كالتنفّس الجيد والنطق الصحيح والتأزر الحس حركي، إلخ.

كما أن الموسيقى وسيلة تُعلِّم تساهم بصفة أساسية في تنمية الفرد من الناحية الفكرية والجمالية وتطوّره من الجانب العاطفي. لقد مُيزت التربية الموسيقية عن التدريس الموسيقي بكون أن التربية الموسيقية لا تعتمد على التعلّم التقني والنظري للموسيقى فحسب كما هو في التدريس الموسيقي، بل تعتمد أساساً على تنمية الذوق والإحساس لدى التلاميذ، ويُدرج ذلك ضمن التربية العامة.

ويتفق على ذلك الباحث في علم الموسيقى والتربية الموسيقية باسكال تيريان Pascal Terrien الذي يرى أن التربية الموسيقية تندرج ضمن التربية العامة (التدريس العام). فالدرس الموسيقي قد يكون حول: تاريخ الموسيقى، آلة موسيقية، الغناء، الأوركسترا، موسيقى الغرفة، التأليف، إلخ. أما أستاذ التربية الموسيقية، فيعتمد في تدريسه على نشاطين أساسيين، هما الغناء والاستماع إلى الأعمال الموسيقية، والتي بدورها ترتبط بإنجاز المشاريع الموسيقية في الأقسام، وذلك عن طريق نشاطات الآلات أو الغناء، سواء كانت فردية أو جماعية.

والتربية الموسيقية هي التدريس الخاص بفن تنظيم وتركيب الأصوات بحسب اللحن والإيقاع والتوافقات وطابع الأصوات والمجال الصوتي والأشكال الموسيقية، وذلك عن طريق الاستماع والأداء والإبداع الصوتي والآلي.

تُعرّف التربية الموسيقية في وزارة التربية الكندية على أنها ذلك التدريس الذي يُعطي الفرصة للتلميذ كي يعيش تجارب موسيقية عديدة، بهدف أن نثير لديه ردود أفعال عاطفية ومعرفية، سواء الشخصية منها أو المرتبطة بظاهرة الصوت. وفي لوكسمبورغ، تُعرّف التربية الموسيقية على أنها ذلك التدريس الذي يعمل على تنمية مهارات التلميذ في مجمل مجالاتها، وتشمل هذه المادة كل من التربية الحسية والارتجال والإبداع والتواصل الاجتماعي.

أما رأينا الشخصي في التربية الموسيقية فننظر إليها على أنها ذلك الفعل التربوي التعلّمي الذي يقوم من خلاله التلميذ بممارسة نشاطات موسيقية، تتمثل بوجه خاص في الاستماع والغناء والحركات الإيقاعية والإبداع

والابتكار والألعاب الموسيقية ودراسة بعض القواعد والنظريات الموسيقية الضرورية وتوظيفها. وذلك بهدف تمكين التلميذ من أن يكون قادرًا على التعبير عن أحاسيسه ومشاعره بواسطة الموسيقى، وأن يكون له قدر كاف من المعارف والقدرات، وكذا الكفاءات الفنية التي تُمكنه من فهم وإدراك - ثم توظيف - أهم العناصر الموسيقية في ممارساته وتعلّماته.

2. تاريخ التربية الموسيقية

للموسيقى والفنون التشكيلية مكانة في النظم التربوية العالمية منذ القدم، وذلك ليس من قبيل الصدفة، بل لكونهما يعملان على تنمية حاستين أساسيتين في الاتصال، ألا وهما السمع والبصر. فالعين والأذن هما النافذتان الأساسيتان اللتان يطل من خلالهما الطفل على المعارف منذ السنوات الأولى من عمره، وهو ما يجعل من تنميتهما في المدارس أمراً ضرورياً.

يقول هاوس House وليونهارد Leonhard في هذا السياق أن "تاريخ التربية الموسيقية لا يمكن فصله عن تاريخ الثقافة الإنسانية". أكد الملحن وعالم الموسيقى جورج فافر Georges Favre (1905-1993) أن تاريخ التربية الموسيقية لم يحظ باهتمام الكُتّاب، والمراجع حوله قليلة جداً باستثناء بعض المقالات التي تناولت هذا الموضوع.

ورغم ندرة الكتابات حول الموضوع فإننا نستطيع التأكيد على أن التربية الموسيقية حاضرة في مختلف الحقب التاريخية. ورغم غياب المدرسة في عصر ما قبل التاريخ فانتقال الثقافة الموسيقية من جيل إلى آخر كان موجوداً، وذلك عن طريق التقليد العفوي لما يسمعه الصغار من الكبار، سواء في الغناء أو العزف على الآلات الإيقاعية، إلخ. أما في العصور القديمة فقد احتلت التربية الموسيقية مكانة هامة في النظام التربوي لدى الإغريق كما هو الحال لدى المصريين القدماء. وكان التدريس لديهم شفهيًا (الاستماع والإعادة). أما النظريات والتدوين بصفة عامة فهو لا يكاد يُذكر. وقد اعتمدت بيداغوجية الإغريق في هذا الميدان على الموسيقى والجمباز (صحة الجسم والعقل معاً)، وكانت الموسيقى والشعر يمثلان فناً واحداً.

وتميّزت القرون الوسطى بحصر الموسيقى في الكنائس والمقرات الملكية. وقد ظهرت في أوروبا بعض الكتابات خاصة الترجمات، منها ترجمات بوثيوس Boethius (480-524) الذي ترجم إلى اللاتينية بعض الكتابات النظرية حول الموسيقى. وبدأت إبان القرن الثامن الميلادي أولى محاولات تدوين الألحان، لكنها كانت محدودة جداً. وكان غيدو الأريستوي Guy d'Arezzo (995-1050) قد أعطى دفعا في وضع بعض القواعد النظرية الأساسية لذلك، فكان له الفضل في ظهور المدرج ذي الأربعة خطوط المتوازية. وفي القرن 12م تم إضافة المفاتيح وأشكال المدد الزمنية (مربعات ومعينات) التي تم تدقيقها في القرن 13م.

وقد ظهرت أولى مدارس تعليم الغناء مع الكنائس، ليتم بعدها إدراج الموسيقى في الجامعات كمادة علمية ترتبط بالحساب والهندسة وعلم الفلك. أما فيما يخص طرائق التدريس فالمعلومات حولها غير متوفرة، والدروس تعتمد بوجه خاص على الحوار بين المعلم والمتعلم.

تميّز عصر النهضة الأوروبية (القرن 16م) باكتشافين أساسيين، وهما الطباعة من قبل يوهان غوتنبرغ Johannes Gutenberg (1468-1400)، والطباعة الموسيقية من قبل الإيطالي أوتافيانو بيتروتشي Petrucci Ottaviano (1466-1539). ذلك ما ساهم في ظهور كتابات عديدة حول الموسيقى والتدريس، نذكر من بينها كتاب بعنوان "Traité de la Musique pratique" سنة 1582 للموسيقار والملحن الفرنسي جان ياساندون Jean Yassandon، الذي يقترح تدريس التربية الموسيقية عن طريق دراسة وأداء السلالم الموسيقية. ونشير أيضا إلى كتاب

"Le Droit Chemin de Musique" الصادر سنة 1550 للموسيقار والمنظر لويس بورجوا Loys Bourgeois، الذي يؤكد كثيراً على ضرورة تدريس الموسيقى عن طريق الصولفاج. أما في ألمانيا فكانت للتربية الموسيقية مكانة هامة حيث قال في هذا الصدد، مطلق عصر الإصلاح وأستاذ اللاهوت مارتن لوثر Martin Luther (1483-1546): "بعد علم اللاهوت، أُعطي للموسيقى أول مكانة وأكبر تجميل".

وفي القرن 17م انفصلت الموسيقى تدريجياً عن التعليم العام لتتوجه إلى التخصص. وكان للصولفاج مكانة أكبر في طرائق التدريس إذ ظهرت كتابات عديدة تناولت في معظمها تدريس الموسيقى بالاعتماد على القراءة والكتابة الموسيقية. إلا أن ذلك لم يمنع البعض من رجال التربية أن يؤكدوا على ضرورة تدريس الموسيقى عن طريق الثقافة السمعية والصوتية، وإدراج الصولفاج والنظريات يكون بعد تحضير الحواس.

ونذكر من بينهم اللغوي وعالم الموسيقى جاك كوسارد Jacques Cossard في كتابه "Méthode pour apprendre à lire..." الصادر في النصف الأول من القرن السابع عشر. وكان لكل من أستاذ الغناء ورجل الدين والرياضي والفيلسوف بينيغم دي باسي Bénigme de Bacill، والموسيقي Marin Mersenne (1648-1588) دور كبير في وضع المبادئ البيداغوجية الحديثة لتدريس الموسيقى حيث أكدوا على ضرورة التقليل من تدريس النظريات الموسيقية، وتعويضها بوضع الطفل في اتصال مع الموسيقى والصوت، إلخ. عرفت التربية الموسيقية في القرن 18م ظهور عدة طرائق في تدريس الآلات الموسيقية، وتمّ في إيطاليا إنشاء معاهد خاصة بتدريسها سُمّيت "كونسرفاتوريو" Conservatorio، وهي تسمية قريبة مما عُرف في فرنسا بـ "Conservateur".

أما القرن 20م فقد عرف ظهور عدة طرائق في التربية الموسيقية مع بيداغوجيين أمثال:

1. موريس شوفي M. Chevais الذي بحث على ضرورة إدراك الطفل للأصوات عن طريق حاسة السمع، ثم معرفة أسمائها، وتأتي في الأخير الإشارات والنظريات.

2. موريس مارتنو M. Martenot صاحب مقولة "الذهن قبل الحرف، والقلب قبل الذكاء".

3. أورف Orff وكودالي Kodaly اللذان أكدوا على أهمية ما يسمى باليقظة الموسيقية، وهو إدراك الموسيقى عن طريق الاستماع والممارسة العفوية في سن مبكر.

عُرف هذا القرن كذلك بظهور علم النفس الموسيقي، وتعدّد الطرائق والمدارس الموسيقية، وبرز مواد علمية لها علاقة بالموسيقى، كعلم الصوت (Acoustics) الذي أصبح ضرورياً في تكوين الموسيقيين. وكانت بدايته في إيطاليا سنة 1925.

وقد بدأ إدراج الموسيقى كمادة أساسية في التعليم العالي بألمانيا. وتمّ تعميم التربية الموسيقية في المجر وفق أسلوب يعتمد على التراث الفلكلوري للبلد. أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد وظّفت بنجاح طرائق التربية الموسيقية القادمة من الخارج، وخاصة أوروبا، ثم عملت على وضع برامج عامة دفعت بالمادة خلال 30 سنة إلى مستوى لم تشهده البلدان الأخرى. كان التدريس في مستويات ثلاثة تتمثل في: المعاهد (Conservateurs)، المدارس على مستوى المقاطعات، ثم الجامعات.

أما الجزائر، فقد ورثت من الحقبة الاستعمارية معاهد البلديات (Conservateurs municipaux)، التي مازالت تُكوّن التلاميذ سواءً في الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية والآلات، أو موسيقى الشعبي والأندلسي، أو المسرح. ثم أنشأت معاهد جهوية للموسيقى التي تمّت مضاعفتها خلال عهدة وزيرة الثقافة خليدة تومي. وتهتمّ هذه المعاهد بتكوين موسيقيين هواة أو محترفين يمكن لهم الالتحاق بالمعهد العالي للموسيقى بالجزائر العاصمة.

وفي الميدان التربوي وُضعت مناهج للتربية الموسيقية بجميع أطوار التعليم (الابتدائي والمتوسط والثانوي). يقوم بتدريس المادة في الطور الابتدائي معلمون غير متخصصين. وفي الطورين المتوسط والثانوي يتولى التدريس أساتذة متخصصون من خريجي المدرسة العليا للأساتذة بالقبة التي تُكوّن خصيصاً لهذا القطاع. كما يُوظّف خريجو المعهد العالي للموسيقى على أساس مسابقات تنظمها وزارة التربية وبعض الجامعات في السنوات الأخيرة. وهكذا فالتربية الموسيقية لها امتداد تاريخي طويل، تطورت بتطور مختلف مجالات الحياة. والمؤكد أنها حاضرة في مختلف الحقب التاريخية ولدى جميع المجتمعات بأشكال وأساليب مختلفة، وهو ما أدى بالموسيقى إلى بلوغ المستوى الراقى الذي وصلت إليه في هذا العصر، سواء من حيث الوسائل والآلات المستعملة، أو أساليب الإبداع والأداء، أو مجالات استعمالها.

لقد أصبحت الموسيقى اقتصاداً تعتمد عليه الدول في كسب الثروات، وهو ما أدى إلى غاية سنة 1998 باحتكار 5 شركات متعددة الجنسيات للسوق العالمي للإنتاج الصوتي والتوزيع بنسبة 80%. ولقد ظهر هذا الاحتكار مبكراً، أي مباشرة بعد ظهور الصناعة الموسيقية قبل الحرب العالمية الثانية. فبالإضافة إلى الأهداف التربوية للموسيقى عموماً والتربية الموسيقية خصوصاً، تشير الأرقام إلى أن الموسيقى أصبحت ثروة واقتصاداً عالميين لا بد من استغلالهما وجعلهما في خدمة التنمية المستدامة.

وما يدل على ذلك، مثلاً، أن المبيعات في مجال الموسيقى سنة 2019 بلغت في فرنسا 624 مليون أورو، وارتفعت، مع حقوق المؤلفين إلى 772 مليون أورو. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فبلغ رقم أعمال الصناعة الموسيقية 21.5 مليار دولار سنة 1999، وهو أكبر رقم خلال الفترة الممتدة من 1978 إلى 2018. وفضلاً عن ذلك فإن نحو 30 مليون شخص يعيشون في العالم من نشاطاتهم في هذا المجال.

بعض المراجع

1. Cadre théorique du Programme d'éducation musicale, document théorique révisé en 2001. France.
2. House and Charles Leonhard. Foundations and Principles of Music Education by Robert W. (1972, Hardcover).
3. Majeres, N. (1999). L'influence de la musique sur l'être humain et la gestion de la manifestation des troubles de comportement extériorisés en classe : Essai de mise en relation et répertoire de techniques. Mémoire de fin d'étude. Université de Sherbrooke. Canada.
4. Ouellet, S. (1994). Vers un modèle d'enseignement favorisant un apprentissage plus signifiant de la théorie musicale. Rapport de recherche, Université de Québec en L'Abitibi-Témiscamingue. Canada.
5. Terrien, P. (les 20, 21 et 22 octobre 2010). Quelques perspectives pour une didactique de l'enseignement musical. GRIDIFE, IUFM-UT2 Midi-Pyrénées, Toulouse. France.

<https://www.la-croix.com/Culture/Musique/bons-chiffres-musique-France-2020-02-25-1201080402>
<https://www.avcesar.com/actu/id-26927/chiffre-daffaires-musique-aux-usa-75-pour-le-streaming.html>
<https://fr.unesco.org/creativity/files/monde-tres-culturel-premier-panorama-mondial-de-leconomie-de-culture-et-de-creation>